أبو الفتح بن جني

عصره — مكانته العلمية — آثاره

— ٢ —

أبو علي الفارسي : هو الحسن بن احمد (او محمد) بن عبد الغفار الفسوي الفارسي الشيرازي .

ولد بفسا سنة ٢٢٨ هـ وفيها تعلم ثم رحل الى بغداد فدخلها سنة ٣٠٧ وطاف بالبلاد العراقية والشامية والفارسية ثم اتصل بسيف الدولة بن حمدان سنة ٣٤١ هـ وجرت بينه وبين أبي الطيب المتنبي مجالس ومحاورات . ثم رحل الى فارس وصحب عضد الدولة البويهي (— ٣٧٢) فعلت مكانته عنده وكان يسير معه حيثما سار ، ومترجموه يروون له قصة مع عضد الدولة خلاصتها انه كان يسايره في ميدان شيراز فسأله عن نصب المستثنى في (قام القوم الا زيداً) فقال الشيخ : انتصب بـ (أستثني) مقدرة فقال عضد الدولة هلا رفعوه وقدروا (امتنع) زيد فانقطع الشيخ وقال هذا جواب ميداني ثم انه لما رجع وضع في ذلك كلاماً حسناً [1] ولعضد الدولة هذا الف أبو علي كتابيه الايضاح والتكملة وظل حفياً به في بغداد وفارس الى أن مات وكان يقول أنا غلام أبي علي الفارسي في النحو .

أما شيوخه الذين قرأ عليهم فهم ابو اسحق الزجاج وأبو بكر بن السراج وابو بكر مبرمان وابو بكر الخياط [2] وغيرهم ويظهر انه كان شديد الاعجاب بنفسه منذ نعومة أظفاره فقد ذكر ياقوت عن أبي علي انه قال : جئت الى ابي بكر السراج أستمع منه الكتاب وحملت اليه ما حملت فلما انتصف الكتاب عسر علي

(١) ابن خلكان ـ ١/١٣١ . (٢) ياقوت ٧/٢٣٢ وما بعدها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في تمامه فانقطعت عنه لتمكني من الكتاب فقلت في نفسي بعد مدة إن صرت الى فارس وسئلت عن تمامه فان قلت نعم كذبت وإن قلت لا سقطت الرواية ودعتني الضرورة فحملت اليه رزمة[1].

وعلى يدي ابي علي تخرجت طائفة كبيرة من العلماء منهم من رأيت ومنهم ابن جني والجوهري وعلي بن عيسى الرماني وعلي بن عيسى الربعي وغيرهم. ويظهر ان ابا علي كان أكثر ميلاً الى العربية منه الى غيرها من العلوم فتعصب له جماعة من تلاميذه على ابي سعيد السيرافي واحتدم الخصام بين الشيخين وجماعتهما فأما جماعة السيرافي فقوم يرون في شيخهم نحوياً بارعاً في علوم العربية والدين. وأما جماعة الفارسي فيرون في شيخهم أبرع في النحو وأفضل، حتى قال قائل منهم انه فوق المبرد وأعلم منه[2]. وقد غاظهم كثيراً أن يتقدم السيرافي فيشرح الكتاب على خطورة هذا الأمر فحاولوا تغليطه فلم يفلحوا. والحق ان ما بقي من آثار الفارسي ليدل على بصر كبير بالنحو وعلله وأقيسته وهذا يؤيد ما حكاه ابن جني عن استاذه من أنه كان يقول أخطئ في مائة مسألة من اللغة ولا أخطئ في واحدة قياسية[3]. فاللغة والمفردات والرواية والأخبار لا بأس بالغلط فيها عند أبي علي ولا تدل معرفتها على شيء كبير. أما الخطأ في القياس والتعليل فشيء عظيم والخطأ فيه شنيع.

وقد علق ياقوت على هذه الكلمة بقوله: هذا كلامه لو معناه على انه كان يقول سمعت الكثير في أول الأمر. قال الشيخ ابو محمد بن الخشاب وكثيراً ما تحصى السقطات على الحذاق من أهل الصناعة النحوية لتقصيرهم في هذا الباب — أي باب الأخبار والرواية — فمنه يذهبون ومن جهته يؤتون[4]. فكأن الشيخ أبا محمد وياقوتاً يفضلان أبا سعيد السيرافي على أبي علي الفارسي لسعة اطلاعه

(١) ياقوت ٧/٣٥٧.
(٢) ياقوت ٧/٢٣٢.
(٣) ياقوت ٧/٢٣٧.
(٤) ياقوت ٧/٢٥٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكثرة روايته ؟ وممن يقول بقولها من القدماء ابو منصور الجواليقي . قال ياقوت «قرأت بخط ابي محمد بن الخشاب: كان شيخنا يعني ابامنصور الجواليقي موهوب بن خضر قلّما ينبُل عنده ممارس للصناعة النحوية ولو طال فيها باعه ما لم يتمكن من علم الرواية وما تشتمل عليه من رواية الأشعار العربية وما يتعلق بها من لغة وقصة ، ولهذا كان مقدّماً لأبي سعيد السيرافي على أبي علي الفارسي وابو علي ابو علي في نحوه ؟ وطريقة ابي سعيد في النحو معلومة ، ويقول : أبو سعيد أروى من أبي علي وأكثر تحققاً بالرواية وأثرى منه فيها . وقد قال لي غير مرة : لعل اباعلي لم يكن يرى ما يراه ابو سعيد من معرفة هذه الاخباريات والانساب وما جرى في هذا الأسلوب كبير أمر[2] . قلت ولا شك عندي في أن طريقه ابي سعيد أجدى وأنفع وأهدى سبيلاً الى تعرف حقيقة العربية وأسرارها . وما نحب أن ننتقل من هذا الكلام قبل أن نعود ثانية الى رأي التوحيدي في المقارنة بين الفارسي والسيرافي فقد رأيت إعجابه بشيخه وحملته على الفارسي بتلك الحملة القاسية : فأبو علي في نظره أشد تفرداً بالكتاب وأكثر انكباباً عليه وأبعد من كل ماعدله عما هو علم الكوفيين وما تجاوز في اللغة كتب ابي زيد وأطرافاً لغيره ... ولأبي علي أطراف من الكلام في مسائل أجاد فيها ولكنه قعد عن الكتاب على النظم المعروف . قال التوحيدي حدثني اصحابنا أن أباعلي اشترى شرح ابي سعيد بالأهواز في توجهه الى بغداد سنة ٣٦٨ لاحقاً بالخدمة الموسومة والندامة الموقوفة عليه بالفي درهم وهذا حديث مشهور وإن كان اصحابه يأبون الإقرار به[1] » فالتوحيدي يعترف للفارسي بالنحو واللغة والاطلاع عليهما في كتب محدودة وما عدا ذلك فلا معرفة له به ، ولا شك في أن أباحيان وجماعة السيرافي مغالون في غضهم من قدر الفارسي فهذه آثاره تشهد بفضله وتنوع معارفه فقد ألف في النحو والشعر والعروض والقراءات واللغة والتفسير والفقه

(١) ياقوت ٦/٢٥٣ . (٢) ياقوت ٨/١٨٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما سترى . ثم انه خرّج جماعة من الفحول والأئمة مثل ابن جني الذي كان يرى في شيخه المثل الأعلى في العلم والفضل وقد ملأ كتبه بمناقشاته وأقواله . والحق ان اباسعيد رزق لساناً بليغاً كلسان ابي حيان ينشر فضله ويبالغ في الغض من قدر خصمه ولا كذلك الفارسي . وسنرى حين كلامنا في علم ابن جني قوة تأثيره في تلميذه من حيث التفكير والبحث والأسلوب العلمي وطرائقه .

ولم تكن الخصومة بين السيرافي والفارسي بأقل من الخصومة بين الفارمي وبين ابن خالويه الذي اجتمع به في حضرة سيف الدولة وتناقشا في مسائل النحو واللغة ويظهر أن ابن خالويه قد أخذ كرهه للفارمي من استاذه السيرافي فلما اجتمع به عند سيف الدولة حاول ان يغيظه ما استطاع ولما رحل عن سيف الدولة أخذ ابن خالويه يدس عليه عند سيف الدولة ليملأ قلبه عليه فما كان من سيف الدولة إلا أن كتب الى الفارسي بما حكاه عنه ابن خالويه فكتب ابوعلي الى سيف الدولة يرد التهم في رسالة لطيفة حفظها لنا ياقوت نقلاً عن كتاب المسائل الحلبيات لأبي علي قال : قرأت في المسائل الحلبية نسخة كتاب ابي علي الى سيف الدولة جواباً عن كتاب ورد عليه منه يردّ فيه على ابن خالويه في أشياء أبلغها سيف الدولة عن ابي علي نسخته :

قرأ ـ أطال الله بقاء سيدنا ـ عبد سيدنا الرقعة النافذة من حضرة سيدنا فوجد كثيراً منها لم تجر عادة عبده به ولا سيما مع صاحب الرقعة الا انه يذكر من ذلك ما يدل على قلة تحفظ هذا الرجل فيما يقوله . وهو قوله : (ولو بقي عمر نوح ما صلح ان يقرأ على السيرافي) مع علمه بان ابن بهزاد السيرافي يقرأ عليه الصبيان . هذا لا خفاء به كيف وهو قد خلط ما حكاه عنه . واني قلت (تعلم مني) أو (أخذ عني) هو وغيره ممن ينظر اليوم في شيء من هذا العلم . وليس قول القائل (تعلم مني) مثل (قرأ عليّ) لأنه قد يقرأ عليه من لا يتعلم منه . وقد يتعلم منه من لا يقرأ عليه . وتعلّم ابن بهزاد مني في أيام محمد بن السري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما بعده لا يخفى على من كان يعرفني ويعرفه [١] ... »

أقول ان أغرب ما في هذه الرسالة قول أبي علي ان السيرافي ابن بهزاد تعلم منه وما نعرف أحداً ذكر هذا ولا أشار اليه ومهما يكن من شيء فان الخصومة بين هذين العالمين الجليلين قد اذكت نار البحث والنقد في هذا القرن وجعلت علماء العربية ببغداد والموصل بل وفي العالم الاسلامي كله معسكرين اثنين وهذا امر له خطره ، ولم يلتفت اليه احد ممن درس المذهب البغدادي ، فبغداد بعد ان جمعت المذهبين البصري والكوفي عاد علماؤها فانقسموا قسمين : قسم يميل الى القياس والتعليل والتقسيم والتعمق وتقعيد القواعد في النحو والتصريف وعلى رأس هذا القسم أبو علي الفارسي ثم تلميذه ابن جني ، وقسم يميل الى ترك النحو ممزوجاً بالأدب والشعر والرواية بعيداً عن حقائق المنطق والتعليلات والتقسيمات وعلى رأس هؤلاء ابو سعيد وتلميذه ابن خالويه . وقد مرّ بك ما ذكرنا من رأينا في المناظرة القيمة التي جرت بين ابي سعيد وبين متى المنطقي . وفي هذا تأييد ما كنا ذهبنا اليه هناك فارجع اليه .

على انه ينبغي ان يعلم أن ميل الفارسي وابن جني الى التعليل والتدقيق لا يعني انهما كانا كالرماني علي بن عيسى الذي سنتحدث عنه فيما بعد فقد كان هذا شديد المغالاة في المنطق وفي مزجه بالنحو والتصريف حتى قال عنه ابو علي الفارسي إن كان ما يقوله الرماني هو النحو فليس معنا منه شيء .

أما آثار الفارسي فكثيرة جداً ذكرها ياقوت في الارشاد [٢] ونحن نذكر هنا ما بقي منها فالايضاح والتكملة منها نسخ كثيرة قيمة في خزائن الاسكوريال والأستانة وليدن ، والعضدي في الشعر منه نسخة ببرلين ، والمسائل المشكلة منها نسخة بمكتبة علي شهيد ، والحجة والاغفال في القراءات منه نسخة ببانكي پور والقاهرة ، وجواهر النحو منه نسخة بمكتبة مشهد [٣] .

(١) ياقوت ٧/٢٥٧ .
(٢) انظر ارشاد الأديب ٧/٢٤٠ .
(٣) بروكلمان GAL. ١/١١٣ والذيل ١/١٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبو الحسن الرماني : هو علي بن عيسى الرماني[١] الوراق الاخشيدي (- ٣٨٤)

ولد سنة ٢٩٦ هـ وانصرف الى العلم مبكراً فأخذ النحو واللغة عن ابن دريد وابي بكر بن السراج والزجاج ، وأخذ الكلام عن ابن الاخشيد المتكلم فنسب اليه[١] وجمع ببراعة بين علوم الكلام والعربية والمنطق وكان متقناً للقراءات والفقه والنحو والكلام والتفسير واللغة . قال ياقوت : كان له كتب مأثورة في مذهب المعتزلة وكان إماماً في علم العربية علاّمة في الأدب من طبقة ابي علي الفارسي وابي سعيد السيرافي وكان يمزج كلامه في النحو بالمنطق حتى قال ابو علي الفارسي : إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وإن كان ما نقوله نحن فليس معه منه شيء ، وكان يقال : النحويون في زماننا ثلاثة ، واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه وهو ابو علي الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا استاذ وهو ابو سعيد السيرافي[٢] .

قلت والسرّ في هذا القول هو أن الرماني كان كثير المغالاة في المنطق ومزجه بالنحو وهذا معقول فإن الرجل كان من كبار رجال المعتزلة والفارسي والسيرافي وإن كانا معتزليين أيضاً الا انه لم ترو عنهما بحوث في الكلام ولا مناقشات فيه ، أما الرماني فقد أكثر من البحث في المنطق والكلام وما اليهما والف في ذلك كثيراً . قال ابن الأنباري : وكان متقناً في الكلام على مذهب المعتزلة وصنف كتباً كثيرة منها كتابه المشهور في التفسير . وعن ابي الحسن هذا نقل ابو حيان التوحيدي مجلس المناظرة بين السيرافي ومتى المنطقي فذكر ذلك في الامتاع وشكر لأبي الحسن عنايته وفضله هذا[٣] ؛ وأما الفارسي فكان يميل الى المنطق وأقيسته ويطبقها في بحوثه العربية ولا يغالي في ذلك وهذا هو سر تفوقه وتفوق مدرسته وخلودها ، وأما السيرافي فنحوي أديب فقيه

(١) هو غير معاصره وسميه النحوي علي بن عيسى الربعي انظر أخباره في ياقوت ١٤/٨٠
(٢) ياقوت ١٤/٧٣ . (٣) الامتاع ١/١٢٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واسع الاطلاع . وهذا هو تفسير كلمة الفارسي في صاحبه الرماني وفي نفسه ويظهر ان الرماني كان كثير المقالة حقاً في المنطق حتى ان المعجبين به كأبي حيان التوحيدي قد عابوا ذلك عليه . يذكر ابو حيان في المقارنة بين الرماني وبين غيره من علماء عصره ان علي بن عيسى الرماني كان عالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق وعيب به الا انه لم يسلك طريق واضع المنطق بل أفرد له صناعة وأظهر براعة . هذا مع الدين الشخين والعقل الرزين [١] . وذكره التوحيدي مرة ثانية في رسالة تفضيل الجاحظ وقد روى كلامه ياقوت فقال ، وقد ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ فقال : ومنهم علي بن عيسى الرماني فانه لم ير مثله قط بلا تقية ولا تحاش ولا اشمئزاز ولا استيحاش علماً بالنحو وغزارة في الكلام وبعداً في المقالات واستخراجاً للعويص وايضاحاً للمشكل مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة [٢] فانت ترى شدة اعجاب ابي حيان بالرماني لسعة عقله وتألهه وتجويد تأليفه وكما كانت حلقة السيرافي عامرة بالطلاب من كل صوب كذلك كانت حلقة الرماني فمن تخرج عليه ابو القاسم علي بن عبد الله الدقيقي [٣] وابو محمد الجوهري [٤] وعلي بن كردان النحوي [٥] واحمد بن ابي بكر العبدي [٦] ومحمد بن احمد بن عمر الخلال اللغوي [٧] .

وقد خلف الرماني خزانة كبيرة في النحو واللغة والأدب والدين ذكرها ياقوت في ترجمته ولم يبق منها شيء فيما أعلم .

* * *

هؤلاء هم الأئمة الثلاثة الذين كان لهم أبعد الأثر في رجال القرن الذي نؤرخه وكيف لا ؟ وكلهم اسلامي الثقافة أحاط بها أيما احاطة ، فارسي الأصل

(١) الامتاع ١/١٣٣ وياقوت ٨/١٨٥ مع بعض اختلاف .
(٢) ياقوت ١٤/٧٦ (٣) نزهة الألباء : ٣٩٠ وياقوت ٥/٣٧١ .
(٤) ابن خلكان ١/٢٣٢ (٥) ياقوت ٥/٢٢٦ (٦) ياقوت ١/٣٨١ .
(٧) ياقوت ٦/٣٢٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ينتمي الى أمة ذات حضارة عريقة عتيدة فاضاف الى ذلك سعة اطلاع على علوم العرب وآدابهم ودينهم ، واضاف الى ذلك أيضاً ما كان نقل من علوم الأقدمين من هند وسريان ويونان فاجتمعت عنده ثقافات رفيعة كان لها الأثر القوي في عقله وفي كتبه وقد رأيت انهم ثلاثتهم وإن كانوا يختلفون في مقدار ما عندهم من الثقافات الأجنبية وألوانها فانهم كانوا جميعاً آخذين بنصيب وافر منها . وقد أثر هذا في كتبهم من جهة ثم فيمن خرّجوا من جهة أخرى وانك لتجد في تلاميذهم خير مثال للمؤلف العربي الاسلامي ، فكتب ابن جني وابن خالويه وابي حيان ، والجوهري وابن المستنير والمحسّن الصابي وغيرهم هي خير ما ورثته العربية على توالي قرونها . وينبغي أن نلاحظ انه بفضل هؤلاء التلاميذ ارتقت لغة التأليف رقياً ما بعده رقي فبعد ان كانت لغة النحو في كتاب سيبويه جافة خشنة غريبة وبعد أن كان كتاب سيبويه وتبويبه مضطرباً اصبحت تجد في كتب ابن جني لغة جد رقيقة ، لغة ذات اسلوب أدبي ، تحتوي ترتيباً وتصنيفاً لا يجاريه تصنيف وترتيب ، وقل مثل ذلك في كتب اللغة عند ابن دريد والجوهري وتلاميذهما ، فقد كانت كتبهم في القرنين الماضيين رسائل موجزة في موضوعات معينة او كتباً مطولة سيئة الترتيب والتبويب مثل كتب الأصمعي والخليل وابي زيد الانصاري وابن الاعرابي وابن السكيت فلما جاء ابن دريد والجوهري والفا كتابيهما سلكا سبيلاً جديدة قويمة وخصوصاً الجوهري فقد جمع جميع الكلمات الصحيحة النقل والرواية وحذف اللفظ الضعيف الرواية المطعون السند وكان الناس قبله يجمعون كل شيء ، ثم انه رتب ذلك كله على حروف المعجم باعتبار ان أواخر الكلم هي الأبواب وأوائلها هي الفصول وجمع في كتابه اربعين الف مادة فكان بذلك أحسن كتاب لغوي وأدقه وأضبطه ولو انه اتيح له ان يبيضه في حياته ولم يترك ذلك الى بعض تلاميذه لخلا الكتاب من كثير مما يعاب عليه .

***

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما بعد فقد تجلى لك في دراسة حياة هؤلاء الأئمة الثلاثة سمو أعمالهم ، ورفعة أقدارهم ، وبعد تأثيرهم في طبقة ابن جني التي جمعت الى دقة البحث ، وبراعة التأليف آراء صائبة ، وأفكاراً صحيحة . وان من يؤتى حظاً في مطالعة كتب ابن جني وابن دريد والجوهري ، يؤتى علماً كثيراً ، وفهماً صحيحاً لا يراهما في آلاف المؤلفات الضخمة التي أُلفت بعد رجال هذه الطبقة الرفيعة .

وسيرى القارئ المتأمل في آثار مؤلفنا العظيم أساليب في البحث وطرائق في طرق قضايا العلم لا يراها فى أسلوب العلماء قبله أو بعده . ولا نغالي اذا قلنا ان علوم العربية على اختلاف شعبها قد أخذت تتكامل في هذا القرن ، ولم يتح لها بعده ان تخطو خطوات كثيرة ، وسيطلع القارئ في الفصول الآتية وبخاصة الفصل الخاص بنشأة فن التصريف أن آثار ابن جني في النحو والتصريف وسائر علوم العربية آثار خالدة ؛ وقف المتأخرون بعده حيث وقف ، ولم يأت من جاء بعده بجديد فيها اللهم إلا شرح بعض نظرياته او تفسيرها أو التعليق عليها او تلخيصها .

اسعد طلس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net